سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ۝٣ ﴾

أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ : أحبطها وأبطلها فلا نفع لها .

كَفَّرَ عَنْهُمْ : أزال ومحا عنهم .

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ : حالهم وشأنهم في الدين والدنيا .

أضل - أي أبطل وأحبط- أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله؛ لأنهم إذْ لم يقيموا الدليل على تديّنهم على المستوى الشعوري؛ فقد اعتُبرت كل حسناتهم وصالح أعمالهم التي كانوا يمارسونها باطلةً لا قيمة لها .

لقد كان قدماء العرب يعدون أنفسهم من أمة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - حيث كانوا يتمتعون بشرف إدارة شئون الكعبة - بيت الله الحرام- كما كانت تُقام عندهم أيضاً عبادات الصلاة والصيام والحج بشكلٍ ما، هذا إلى جانب تمسكهم ببعض عادات النبل والكرم والمروءة كخدمة الحجاج، والإحسان إلى ذوي القربى، ونجدة المظلوم وقري الضيف وما إلى ذلك ، غير أن هذه الأعمال كلها لم تكن جزءاً أصيلاً من تدينهم الشعوري، وإنما كانت جزءاً من حياتهم على وجه التقليد المحض، فلم يكونوا

يمارسونها إلا لكونها مازالت رائجةً بينهم منذ مئات السنين .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

فَضَرْبَ الرِّقَابِ : فاضربوا الرقاب ضربا .

أَثْخَنتُمُوهُمْ : أوسعتموهم قتلا وجراحا وأسرا .

فَشُدُّوا الوَثَاقَ : فأحكموا قيد الأسارى منهم .

مَناً : بإطلاق الأسرى بغير عوض .

فِدَاءً : بالمال أو بأسارى المسلمين .

حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا : آلاتها وأثقالها ، والمراد حتى تنقضي الحرب .

لِّيَبْلُوَ : ليختبر ، فيمحص المؤمنين ويمحق الكافرين .

فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ : فلن يبطلها بل يوفيهم ثوابها .

المراد بالكافرين هنا: الذين رفضوا الإيمان رغم قيام الحجة عليهم، وأشعلوا ضد رسول الله - ﷺ- نيران الحرب بغير الحق، وهكذا اضطروه - عليه الصلاة والسلام - إلى اتخاذ خطوة دفاعيةٍ ، وبالنسبة إلى مثل هؤلاء الكافرين المعتدين أمر الله سبحانه المؤمنين بأنكم إذا ما التقيتم به في ميدان الحرب، فاستميتوا في قتالهم حتى تحطموا قوتهم وتكسروا شوكتهم، لكي لا يعودوا قادرين مستقبلاً على الوقوف في وجه دعوة الحق!!

وقد جرت سنة الله تعالى بإهلاك الأمم والشعوب التي أنكرت أنبياءها بعد قيام الحجة، وأما بالنسبة إلى نبي آخر الزمان، فقد كان مطلوب الله هو أن يتم القضاء بواسطته هو وأصحابه على عصر الشرك، وبناءُ تاريخٍ جديدٍ على أساسٍ من التوحيد، وانتخاب الأفراد صانعي التاريخ كهؤلاء لم يكن ممكناً إلا في ظل ظروفٍ صعبة وشديدة، ومن ثم فقد تم الوصول إلى هذا الغرض نفسه بدفع الرسول وصحابته إلى الخوض في غمار الحرب التي أوقدها أعداء الإسلام.

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ بمعنى: هداهم إليها، وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

فَتَعْساً لَّهُمْ: فهلاكا، أو عثارا أو شقاء لهم.

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ: فأبطلها لكراهتهم القرآن.

دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ: أطبق الهلاك عليهم.

مَوْلَى: ولي وناصر.

إن الله هو مُظهر الأحداث والوقائع كلها، إلا أنه يُظهر الوقائع في ستار الأسباب والعلل، وهذا هو الشأن فيما يتعلق بالدين كذلك، فالله - سبحانه وتعالى - وإن كان

يريد أن تتحطم قوة الباطل وتندحر، ويتمتع الحق بالغلبة والاستقرار في الأرض، غير أن إظهار هذه الواقعة يتطلب أفراداً يكونون بمثابة ستارٍ بشريٍ لتصرف اليد الإلهية وراءها ، وذلك ما عُبّر عنه في هذا المقام بـ " نصرة الله " وحينما تهب طائفة لنصرة الله، فإنها تعمل على إثبات كون المنكرين منكرين، حيث إن القائمين بنصرة الله من شأنهم أن يدعوا الناس إلى الله بمنتهى الجدية والنصح والإخلاص، ويتجنبوا كل سلوكٍ ينافي الحق، وهم يشهدون لدين الله، ويجعلوا أمر الحق بالتالي واضحاً ثابتاً إلى أقصى الحدود، حتى تقوم على المنكرين تلك الحجة التي يريدها الله تعالى للقضاء بين العباد في محكمة الآخرة !

إن المبطلين مقضي عليهم أن يُغلبوا على أمرهم حتماً، وإن أتباع الحق مكتوب لهم أن ينتصروا ويتغلبوا عليهم حتماً كذلك، ولكن بشرط أن يقوم أتباع الحق بذلك العمل الذي لابد من القيام به لاستحقاق نصر الله وحمايته وفق السنة الإلهية !

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ ﴾

مَثْوًى : موضع ثواء وإقامة لهم .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ : كثير من القرى .

هذا وعيد تنبأ به رسول الله - ﷺ- بأمرٍ من الله، مخاطباً كفار مكة الذين اضطروه إلى الخروج منها، بأن أكلكم وشربكم وتقلبكم في أعطاف العيش الناعم، لا يجعلكم تظنون أنفسكم أحراراً، وإنما أنتم في قبضة الله محاصرون بقدرته التي لا تحد، ودليل ذلك أنكم إن ظللتم مصرين على كفركم وعنادكم، فسوف يحل بكم الهلاك والدمار

المستأصل وفق الناموس الإلهي،وقد تحقق هذا الواقع على حسب النبوءة تماماً،حيث تمكن حَملة لواء التوحيد من إحراز الغلبة والانتصار في نهاية المطاف!

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

مَثَلُ الجَنَّةِ : وصفها – ما تسمعون .

غَيْرِ آسِنٍ : غير متغير ولا منتن .

عَسَلٍ مُّصَفًّى : منقى من جميع الشوائب .

القيام على بينةٍ – أي على دليلٍ – يعني بناء حياتنا على أساسٍ من الحقيقة الواقعة . أما الذي يقوم على أهوائه فهو ينحرف عن الحقيقة الواقعة. إنه يريد أن يبني لنفسه في دنيا الله هذه دنيا مستقلةً على غير مرضاة الله !

وفي عالم الامتحان الراهن ، وإن كانت الفرص والمواقع متاحةً لكلا الفريقين على حدٍ سواء، إلا أن الفريق الأول وحده هو الذي سينال نصيباً من نعيم الله الأبدي في عالم الآخرة الحقيقي ، أما الفريق الآخر فسيظل هناك يتجرع مرارة الذل والخيبة والخسران أبد الآبدين !!

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ

ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

مَاءً حَمِيماً : بالغا الغاية في الحرارة.

مَاذَا قَالَ آنِفاً : ماذا قال الآن أو الساعة القريبة ؟

من علامات المنافق أنه إذا حضر مجلساً جاداً، تظاهر بسمت الأدب والجد والوقار، غير أنه يجلس هناك شارد الذهن مصروف الاهتمام إلى أشياء أخرى، بحيث لا يكاد يعي شيئاً مما يدور فيما حوله من حديث، ومن ثم فإذا خرج من المجلس، توجه إلى أهل العلم الآخرين سائلاً ! " ماذا كان يقول الشيخ الساعة في مجلسه"؟!

وهذا ثمن يُضطرون إلى دفعه بسبب عبوديتهم للشهوات، فهم يجعلون هواهم هو الغالب المسيطر على نفوسهم، ويأخذون في الانسياق وراءه بدلاً من الانسياق وراء الدليل والبرهان، وتكون النتيجة أن تنطمس حواسهم وتصاب شيئاً فشيئاً بالبلادة والخمول، ولا تعود عقولهم قادرة على إدراك الحقائق السامية اللطيفة .

وعلى نقيضٍ من ذلك فالذين يعطون الأهمية للحقائق ويأخذون أنفسهم بالخضوع والاستسلام للدليل الصادق، فإنهم ينعشون بذلك استعدادهم الفكري، ولا تزال معرفة أناسٍ كهؤلاء تتزايد يوماً بعد يومٍ، إذْ أنهم يظفرون بإيمان دائم التجدد والنماء وغير قابلٍ للجمود أوْ النقصان أبداً !

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

جَاءَ أَشْراطُهَا : علاماتها ومنها مبعثه ﷺ .

فَأَنَّى لَهُمْ ؟: فكيف . أو من أين لهم ؟

ذِكْرَاهُمْ : تذكرهم ما ضيعوا من طاعة الله .

يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ : متصرفكم حيث تستقرون .

الشخص الذي لا يتنبه على سابق إنذار بوقوع الزلزال، فكأنما هو ينتظر أن يقع الزلزال فعلاً، لأن كل ثانيةٍ تمضي تُقَرِّبه من الزلزال ، وكذلك لا يكاد يتنبه المرء ولا يأخذ حذره من نذير القيامة ، ولكنه إذا فوجئ بقيام الساعة، فسيأخذ في الاعتراف والتسليم !!

الاستغفار في جوهره تعبير عن الشعور بالعجز ، إن الاضطراب أوْ التهيّج النفسي الذي يتمخض عن استحضار أهوال القيامة، وعن الإحساس بقدرة الله وبرقابته وعلمه الشامل المحيط بكل شيء، لا يزال ينسبك في صورة كلماتٍ لطيفةٍ، وهذه الكلمات هي التي يقال لها الذكر والدعاء والاستغفار !

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

وَمَثْوَاكُمْ : مقامكم حيث تستقرون .

الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ : من أصابته الغشية والسكرة .

فَأَوْلَى لَهُمْ : قاربهم ما يهلكهم واللام مزيدة ، أو العقاب أحق وأولى بهم .

طَاعَةٌ : خير لهم أو أمر طاعة .

عَزَمَ الأَمْرُ : جد ولزمهم الجهاد .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ : فهل يتوقع منكم ؟ (أي يتوقع) .

تَوَلَّيْتُمْ : الحكم وكنتم ولاة أمر الأمة .

المنافق يكون أسبق الناس في مجال القول، وآخرهم في ميدان العمل، حيث لا يفتأ يتحدث عن الجهاد قبل وقوع الجهاد بالفعل، وأما إذا جد الجد، وتحتم الجهاد، فلا يلبث أن يفر هاربا!!، وأما المؤمن الصادق فإنه يكون دوماً على أتم الاستعداد للسمع والطاعة والانقياد ، فإذا عزم الأمر، وقرّ رأي القيادة على تبني خطوةٍ جادة، أثبت بعمله أنه وفي كل الوفاء بعهده الذي عاهد عليه ربَّه !

وقد يتظاهر المنافقون بالحرص على الأمن والسلام تهرباً من متاعب الجهاد ، ولكن واقعهم العملي يشهد بالنقيض؛ فحيثما وجدوا الفرصة، راحوا ينشرون الفساد والفوضى، ولا يتحرجون حتى من التمالؤ والتعاون مع أعداء المسلمين غير مبالين بما بين هؤلاء وإياهم من وشائج القربى فضلاً عن أخوة الدين !! ومثل هؤلاء ملعونون عند الله، وكون المرء ملعوناً يؤدي إلى أن يسلب منه قوى التفكير والإدراك، فيعود لا يرى مع كونه يملك البصر، ولا يسمع وعنده أذنان !!

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

أَقْفَالُها : مغاليقها التي لا تفتح .

سَوَّلَ لَهُمْ : زين وسهل لهم خطاياهم ومناهم .

وَأَمْلَى لَهُمْ : مد لهم في الأماني الباطلة .

يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ : إخفاءهم كل قبيح .

القرآن كتاب موعظةٍ ، ولكن لكي يتغط المرء بشيءٍ ما، لابد أن يكون جاداً بشأن الموعظة ، ولو أن عاطفةً خاطئةً استمكنت من نفس المرء وجعلته غير جادٍ بشأن الموعظة، فإنه لن يستطيع الانتفاع بها أبداً، مهما تم عرضها بأسلوبٍ رائعٍ جميلٍ .

وإن المرء إذْ يُعرض عليه حكم من أحكام الدين يتطلب التضحية بشهواته ومصالحه، فإذا بالشيطان يلقن المرء بعض الأعذار الكاذبة، وبسبب مهلة الامتحان المتاحة في عالمنا الراهن فقد لا يعدم المرء الفرصة لكي يختار ذلك العذر الشيطاني الكاذب عملياً ، غير أن ذلك لا يدوم سوى أيامٍ معدوداتٍ، فحين يوافيه الأجل المحتوم، تنقلب الأوضاع والموازين والقيم كلها رأساً على عقبٍ !

لقد وُصف النفاق هنا بعبارة الارتداد على الأدبار من بعد ما تبين لأصحابه الهدى، ولكن من المعلوم أن منافقي المدينة هؤلاء لم يعاقبوا بعقوبة الردة المقررة في التشريع الإسلامي، ومن هذا نعلم أن عقوبة الارتداد الشرعية إنما تنفذ على الذين يرتدون جهراً وعلانيةً ، إذن، فليس من الجائز لنا أن نحكم على شخصٍ ما، من تلقاء أنفسنا، بأنه مرتد في الباطن، ثم نأخذ في تنفيذ عقوبة الردة الشرعية عليه، لا، بل يجب التعامل معه بحسب ظاهره، وتوكل سرائره إلى الله علام الغيوب، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس !

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ

لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

أَضْغَانَهُمْ : أحقادهم الشديدة الكامنة .

بِسِيمَاهُمْ : بعلامات نسمهم بها .

فِي لَحْنِ القَوْلِ : بفحوى وأسلوب كلامهم الملتوي .

إنما كان مرض المنافقين هو كون صدورهم منطويةً على الحقد والضغينة والكراهية للمؤمنين الصادقين ؟! وهؤلاء المنافقون وإن كانوا يحاولون إخفاء حالتهم الداخلية تلك بإظهار المودة والولاء في سلوكهم الظاهري، إلا إنها لم تكن خافية على ذوي العقول والبصائر ، حيث إن لهجتهم المصطنعة، ونبرات صوتهم الباردة الخالية من الهم والإخلاص للدعوة المحمدية كانت تشي بأن علاقتهم بالإسلام إنما هي علاقة شكلية بحتة وليست علاقة قلبيةً بالمعنى الحقيقي !

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ : لنختبرنكم بالتكاليف الشاقة .

وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ : نظهرها ونكشفها .

عندما ينهض المرء بالإيمان، فتمر عليه ظروف وأحوال شتى ، وهذه الأحوال تكون محكاً يكشف عن صدق إيمانه ، فهي تقتضي أن يقيم المرء الدليل على كونه مؤمناً في مقابل التضحية؛ بأن يهضم نفسه ويقمع شهواتها، ويصرف نظره عن مصالحه المادية العاجلة، ويتحمل أذى الناس، ويظل ثابتاً على جادة الإيمان ولو كلفه ذلك حياته وما

ملكت يمينه !!

ولإلقاء المؤمن في أحوالٍ كهذه لابد وأن تُتاح لغير المؤمنين الحرية التامة، حتى يتمكنوا من اتخاذ أي إجراءٍ شاؤوا ضد أهل الإيمان ، وبينما تسفر هذه الإجراءات المعادية - من ناحيةٍ - عن قيام البرهان على جريمة المخالفين، يثبت أهل الإيمان - من ناحيةٍ أخرى - بصمودهم واستقامتهم في تلك الأحوال القاسية، أنهم مؤمنون حقاً، وجديرون بأن يختارهم الله لإسكانهم في عالمه الأبدي الكامل !

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

فَلاَ تَهِنُوا : فلا تضعفوا عن مقاتلة الكفار .

السَّلْمِ : الصلح والمواعدة .

يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ :ينقصكم أجورها .

جاء في رواية عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع - لا إله إلا الله - ذنب؛ فنزلت هذه الآية ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ وعلى ضوء هذه الرواية يكون معنى الآية أنه ينبغي للمرء أن يجمع بين الإيمان والطاعة، وألا يقوم بالتكاليف السهلة اليسيرة فحسب، بل عليه أن يقوم كذلك بالتكاليف العسيرة التي تستلزم هضم النفس، وكبت الشهوات، وتعريض المصالح الذاتية للخطر ، وإن هو لم يفعل ذلك فإن إتيانه بالنوع الأول من التكاليف وحده ، لن يعود عليه بأي فائدةٍ !

وشأن ضعاف المسلمين أنهم إنما يؤيدون الحق ما دام لا يجرّ عليهم ذلك غضب كبار العصر ، وإذا رأوا أن تأييد الحق يتسبب في إثارة غضب كبار العصر، مالوا إلى مهادنتهم، حتى ولو كان هؤلاء الكبار منكرين للحق صادين الناس عن سبيله .

والذين ينكرون الحق ويتصدون لمعارضته ووضع العقبات في طريقه، لن ينالوا نصيباً من رحمة الله أبداً، إذن فما بال أناسٍ يقفون إلى جانب المنكرين كهؤلاء، هل سيكون مصيرهم مختلفاً عنهم في شيء؟ كلا!

إن الإسلام يسمح بالحرب والقتال تماماً كما يدعو إلى الصلح والمسالمة ، إلا أنها ليست من الحرب الإسلامية في شيءٍ، تلك التي يدخل فيها المقاتلون متأثرين بعوامل الإثارة والاستفزاز، كما أنه ليس من الصلح الإسلامي في شيءٍ، وذلك الذي يكون الباعث عليه الجبن والخور وسقوط الهمة، ولإحراز النجاح والانتصار لابد من أن يتم كلا الأمرين تحت قرار مدبر مدروس بدل من أن يكون صادراً عن رد فعلٍ عاطفيٍ !!

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

فَيُحْفِكُمْ : يجهدكم بطلب المال .

أَضْغَانَكُمْ : أحقادكم الشديدة على الإسلام .

إن الشيء الذي يحول دون اختيار حياة الإيمان والتقوى هو فوائد الدنيا ومباهجها ، فالمرء يعلم جيداً ما الطريق الذي سيؤدي به إلى النجاح والفلاح في الآخرة ، ولكن همّ

المصالح الوقتية يملك عليه مشاعره كلها ويجعله بالتالي يتجه نحو طريق الضلال والانحراف ، على حين أن الله - جل شأنه - غاية اللطف والرحمة بعباده، حيث إنه لا يطالب المرء أبداً بما يخرج عن طوقه أوْ يفوق مقدرته على التحمل، مما قد يؤدي إلى انكشاف سرائره واطلاع الناس على مكامن ضعفه الفطري .

الإسلام دين الله ، غير أن واجب القيام بنشره وحفظه منوط، في عالم الأسباب هذا بطائفةٍ من البشر، وإن المسلمين هم هذه المجموعة البشرية ، وستكون لهم قيمة ويقام لهم عند الله وزن ماداموا يؤدون واجبهم ذاك على أفضل وجهٍ ممكنٍ، أما لو أنهم تقاعسوا عن القيام بهذا الواجب أوْ قصروا في أدائه، فسيوفق الله الشعوب الأخرى غيرهم إلى الإيمان، ويدعم بها دينه ليتمكن من البقاء والتوسع والاستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !

obeikandl.com